تتحدث إليه في أيسر الأمور، إنَّك لم ترها منذ عادت إلينا، وفيم تراها وقد طلقها خالد، فلم يبق بينك وبينها سبب؟ أما قبل أن يطلقها وقبل أن يلم بها هذا المرض، فقد كنتَ تحب حديثها وتأنس إلى لقائها وترغب في زيارتها، كانت زوج خيِّك، أمَّا الآن فليست منك في شيء، ولو قد رأيتها لرأيت شرًّا عظيمًا، أتذكر كيف كانت تتحدث فتُحسن الحديث في لغتها تلك القاهرية، وكيف كانت تُداعِب فتحسن المداعبة في ظُرفها ذاك الذي لا نحسنه نحن في الأقاليم؛ لقد ذَهَبَ هذا كلُّه، وأصبحت حياة نفيسة وَجْدًا كلها، وأصبح صمتها مُتَّصِلًا مخيفًا، وأصبح صوتها خافتًا لا يكاد يُسمع، وأصبح حديثها غامضًا متقطعًا لا يكاد يستوي ولا يبين، لقد أصبحت عاجزة حتى عن أيسر الأشياء؛ إنها لا تكاد تعرف من العدد إلا العشرة: فهي لا تُحسن أن تقول العشرين والثلاثين والأربعين، وإنَّما تقول عشرتين وثلاث عشرات وأربع عشرات، ولست أدري كيف تقول إذا جاوزت المائة! لقد انتهى بها البُؤس إلى هذا كله، وتصور بُؤس أمها حين تراها على هذا النحو، وحين تضطرب بين فقد زوجها ومرض ابنتها؛ فأما الصبيتان فلا تدركان من هذا شيئًا، ولكن لهما حظًّا من قسوة الطفولة، فهما تعبثان بأمِّهما وتضحكان من ذُهُولها وما اضطرت إليه من البله، ولا تَحْفَلَان بجدتهما، ولا تكادان تحفلان بنسيم؛ لأنهما لا تفهمان عنها أكثر ما تقول؛ حدِّثني عن هؤلاء النسوة أمن أهل الجنة هنَّ أم من أهل النار؟

ثم حدِّثني عن خالد وأبيه وعن نفسك، إنكم تصلون وتصومون وتسعون إلى الشيخ وتشهدون حلقة الذكر وتقرءون القرآن وتظنون — وأرجو — أن تكونوا من أهل الجنة، ولكنكم ترون هذا البُؤس المؤلم، وهذا الشقاء المهلك، فلا تَمَدُّونَ إلى البائسين يدًا، ولا تنالونهم بمعروف، ولا تكرهون أن تُضِيفوا إليه بُؤْسًا جديدًا وشقاء طريفًا. قالت ذلك ثم لم تستطع أن تمضي في الحديث؛ لأن صوتها انحطم في حلقها، ولأن دموعها انهلت على وجهها غزارًا، وكان زوجها يسمع لها في صمت متصل يقطعه بين حين وحين بهذه الكلمات: لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فلما رأى زوجه تمضي في البكاء ولم يستطع أن يَثْبُتُ لها لهذا الحزن، ترك امرأته وخرج من الدار، لا يريد وجهًا بعينه، وإنما يفرُّ من منظر لا يستطيع له ثباتًا، ثم عاد إلى أهله بعد ساعة، فرأى امرأته قد أصلحت من شأنها وانصرفت إلى أمر بيتها تُدَبِّرُهُ وتقوم عليه، وهمَّ سليم أن يتحدث إلى امرأته حديثًا غير الذي كانا فيه، ولكنها لم تستجب له، وإنِّما استأنفت حديثها من حيث قطعته أو من حيث قطعه عليها البكاء، قالت: أمَّا أنا فلا أحسن صلاة ولا صومًا ولا عبادة، ولكنَّ الله يرى ما آتى من الأمر سرًّا أو علانية، وهو